حافظ وشوقي (١)

ما الشعر ، وما هي اتجاهاته ، ولماذا نعشقه ، وما قيمته في الحياة الانسانية ؟ .
أسئلة قد تخطر على بال بعض القراء ، وليس من السهل الجواب عليها في كلمة واحدة . وانما يمكن أن نقول ان الشعر هو لغة العاطفة والخيال . وهو قبل كل شيء مادة وروح ، وأعذب الشعر ما كانت روحه أغلب على مادته .

وروح الشاعرية كامنة في الانسان والحيوان والطبيعة . وهي في الانسان أحاسيس يحركها الحزن والفرح والضحك والبكاء . وهي في الحيوان أصوات تتجاوب في الأحراج والغابات بين زئير الأسد وبغام الظباء وغريد الطيور ونقيق الضفادع وفحيح الأفاعي . وهي في الطبيعة ، في جمالها الرائع ومناظرها الخلابة بين الجبال الشاهقة والصحاري المقفرة والبحار الصاخبة والجداول المترقرقة والمروج المنبسطة ، تحمله في دوي العواصف وهزيم الرعد ، ووميض البرق ، وهدير الموج ، وحفيف الغصون ، وهمسات النسائم .

ولغة الإنسانية هي أقوى ترجمان ينطق عن هذه الأصوات ، ويعبر عما ترسمه في نفسه من تهاويل ونقوش . وأن الانسان ليرق بمدنيته ومشاعره في اتقان هذه اللغة العميقة فيعذب منطقه ويصفو وجدانه وتتضاءل منه شرور الحيوانية العمياء .

والشاعر الصادق كـكل صاحب فن وذوق تملك حب هذه اللغة فاستطاع أن يخلق من ليرات الألفاظ كائنات حية في معناها وكأنها منحوتة من أوصاله أو متدفقة من قطرات دمه .
ولكن أين هو الشاعر الصادق ؟

يقول الناقد الانكليزي الكبير « وليم هازليت » في معرض نقده للشاعرين « بوب » و « وردزورث » . « لم يكن « بوب » مميزاً كشاعر رقيق له خيال واسع وحماسة مشغوفة بجمال الطبيعة ، لا ، ولم يكن متأثراً بانفعالات القلب وخلجات العواطف . ولكنه كان حاضر البديهة ذكياً ناقداً نافذ البصيرة . وقد تجمل الدنيا ببراعة الحذق وصياغة الفن ، وإذا شئت فقل اذا زخرفها الفن . وفي سرعة الخاطر وحدة الذكاء مجال لامتلاك هذه الناحية . على أن

(١) رسالة لصديقنا الأديب الكبير الاستاذ حسن كامل الصيرفي

(بوب) كانت تهزه مشاعره في بعض الاحايين فينطق بما لا يقال، مما كان سبباً لنفور أسرته وأصدقائه منه

« وقصارى القول إن بوب كان شاعراً للفن لا للطبيعة ، والفرق بين الاثنين كما أراه، أن شاعر الطبيعة يتأثر بما تخلقه في نفسه صور الجمال والقوة والشهوة الجائعة على صدره.

وكيفما كان الجمال وحب العظمة وسحر الطبيعة في جلالها الاخاذ ، مضافاً إليها ما ضمنته الأفكار والآراء وما حوته القلوب والأفئدة ، فإنها جميعاً من خصائص الشاعر العالق بالحق المتعمق في بواطن الأشياء المندمج في مشاعر الناس في كل زمان ومكان . لأنه قطعة من الطبيعة ذاتها ، لم يخلقها وإنما خلقته . وكان له مريدون من قراء شعره مهما تباينت عواطفهم واختلفت مداركهم . ذلك لأنه ينظر للاشياء كما تبدو في تكوينها النظري ، فيشعر منها بما يوائم طبيعته ويتفق والأوضاع كما أبرزتها الطبيعة في أشكالها وألوانها ».

« هكذا كان هومير وشكسبير » .

«فقد كانت أعمالها الرائعة مشتقة من الطبيعة ، لأنهما كانا صورتين صادقتين منها . نبتا من جرثومتها كما يتفجر الينبوع العذب من باطن الأرض . قوة الخيال فيهما ما هي إلا القوة التي استحدثت هذه البدائع الخالدة .

ذلك شأن « بوب » . لم يكن شاعر الطبيعة أو في مقدمة رجالها ، لأنه كان ينظر اليها مطرزة بالفن ، موشاة بالصنع . يزينها الملبس ويغطيها الثوب ، فاستطنع شعره من نسيج غيره لا من ذات نفسه » .

ويرمي « هازليت » في قوله عن الفن الى أنه الصناعة كما يفهم من مدلول عباراته . والكلمة في تفسيرها تعني ذلك . ففي القاموس أن فن الشيء مزينه . وإنما أخذها المحدثون واستعملها المعاصرون على أنها الذوق الأصيل .

ولا يعدو رأي « هازليت » آراء عظماء النقاد والكتاب في الشرق والغرب يستوي في ذلك المتقدمون والمجددون . ويروي ابن قتيبه في كتاب « الشعر والشعراء » « لم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلاً حظه ، ووفرت عليه حقه » .

« فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله » .

«ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجية[1] في أوله » .

مما تقدم يتبين أن الشعر مادة وروح ، وأعذبه ما كانت روحه أغلب على مادته . ويقول صديقنا الأستاذ حسن كامل الصيرفي في كتابه «حافظ وشوقي» عن فن الشاعرين «وأول ما يلاحظ على فن شاعرينا «المادية» التي لم يستطيعا أن يبرأا منها حتى في الأوصاف التي تنأى عن المادية ، وقل أن تصفو صورها منها . فشوقي مثلاً — وهو أقل من صاحبه انغماساً في هذه الناحية — حين يصف منظراً طبيعياً لجريان الماء وخريره يصفه كأنه وضح العروس تبينه وتخفيه » . ولكن شوقياً كان يتجه صوب الخيال في كثير من قصائده ، وبخاصة ما كان متصلاً بالطبيعة ، على أن اتجاهه ناحية الخيال لم يكن استغراقاً في الطبيعة ولكن كان افتتاناً حسياً أكثر منه احساساً روحياً » .

وهو قول لم يعد الصواب بل صادق كل الصدق في حكمه .

وصديقنا الأستاذ الصيرفي ليس بصديق اليوم ، فهو صديق الشباب ، ظلنا على مودتنا الوطيدة لم يمسها خلاف في الرأي أو تعصب في القول . وبقي كلانا له ناحيته وعقيدته ، ومودتنا هي ما هي لم تشبها شائبة ، مزاجها الحب والصفاء . نلتقي ونفترق كأحسن ما يكون الصديقان . لا نعرض لفكرة إلا ويحترم كل منا لصاحبه رأيه فيها دون تعنت أو اصرار ، ولا ينقلب الرأي الى نقاش وجدال يصدران عن تشيع وتحزب بغيض .

وقد تناول صديقنا الصيرفي «حافظ وشوقي» بمقدمة عنهما وعن موسيقاها وثقافتهما وشعرهما السياسي وحبهما للطبيعة وقوة الرثاء فيهما وأثر المرأة في شعرهما ، ثم عرج على مقارنة بينهما في قصائد نظماها في مناسبات حركتهما معاً ، وبسط للقارىء اتجاه كل منهما مشيراً الى ما ذكره بعض كبار النقاد أو الشعراء عنهما معلقاً برأيه الخاص في الاثنين . ثم انتهى الى معارض التاريخ سارداً أثر التاريخ القديم والاسلامي في أشعارهما . وانتقل بعد ذلك الى قصيدة شائعة . مشيراً الى ان ما ذكره ما هو الا دراسة أوحت بها ذكرى الشاعرين بمرور خمسة عشر عاماً على وفاتهما على نطاق محدود » .

والحق أن هذه الدراسة — وان اعتذر صديقنا بضيق نطاقها — تنم عن نظرة خالصة تظهر الشاعرين كما هي دون تحيز أو محاباة لهذا أو ذاك وانما يعرض للقارىء ما احاط بهما

(١) الخارجي — الذي يخرج ويشرف بنفسه من غير ان يكون له قديم . ومنه الخارجية ، وهي خيل لا عرق لها في الجودة ، فتخرج سوابق ، وهي مع ذلك جياد

من ظروف الحياة ، ويذكر مواضع القوة والضعف في القصيدة معللاً أسبابها تعليل الشاعر الفطن اللبيب .

لم أر حافظاً وشوقي إلاّ عرضاً في الطريق ، وكانت ترتسم على الاول خطوط فيها البؤس والكآبة والإشفاق ، وكان يمشي متمهلاً وقد عراه ضعف الشيخوخة . ولمحت شوقياً يسير مسرعاً كثير التلفت وكأنه يسترعي انتباه الغادين إليه . وفي مرة كنت وصديقاً لي على مقربة منه ، فأومأ صديقي إليه بذكره فما كان منه إلاّ أن هرول الى الاختفاء من أنظارنا . وهذه السمات والحركات قد تعطي للفكر صورة غير قاطعة عن طبيعة كل منهما ، يزيدها التفرس في حياتهما وأشعارهما جلاء . وربما جاء الحكم على غير ما صوّره الحدس في النظرة الاولى .

غلب على حافظ التشاؤم إذ عانى ما عانى من بؤس وشقاء لولا أن ساندته عطف الأستاذ الامام وحدبه عليه في مستهلّ حياته . فلما مات الامام وأعقبه من بعده الزعيم مصطفى كامل ، ضاقت الدنيا بحافظ ولم يجد له سبيلاً للعيش . وارتفع شأن الوصوليين ، ورأى أن الشعر وحده لا يغني عن الحياة شيئاً ، فآثر اللجوء الى وظيفة تقيم أوده وتؤدي بلغته .

أما شوقي فكان يملك من الغنى الموروث ما يصونه ويصرفه بكليته الى صقل ثقافته بالدرس والتحصيل والتغلغل في الطبيعة وابراز صورها الرائعة الجميلة . ولكن غلب عليه حب الشهرة والظهور يبعث وراء كلمات المدح والاطراء فيستزيده ذلك من القناعة بمجاراة معاني القدماء !!

ولسنا نتبين بهذا القول شاعرية كل منهما ، وإنما قد يكون من المناسب أن نرجع الى ما قلناه آنفاً الى الخصائص الاولية الواجب توافرها في الشاعر المطبوع . فلا شك في أن حافظاً وشوقي كانت فيهما شاعرية ولكنها شاعرية محدودة لم تصل الى أعماق الطبيعة . فهي شاعرية سطحية عمقتها ريشة الفنان !! .

عاش الشاعران معاً في جو داجن لم يلقن الشعر فيه إلاّ أنه قاصر على المدح والنسيب ، والتقدم بإعلاء شأو هذا ورفع ذكر ذاك . فضلاً على التمسك برضا الحاكمين وأصحاب المناصب والأمر . وقد حاول شوقي أن يتنصل من هذه الطريقة ليظهر كشاعر مجدد ، إلاّ أن هذا التنصل لم يخلو من الإسفاف الذي تورّط فيه كثيراً بحكم مركزه وصلته .

على أن ما يعاب في قصائد المديح لا أنها نظمت في المدح ، فمن المدح ما صدر عن عاطفة جياشة وصدق في القول وإنما يعاب المدح ، وكان أكثر ما يقال ، في النفاق والملق

والمداعبة التي يكيلها الشاعر للذات التي يطريها . وأنها لتبدو جلية في القول يمجها السمع وتعافها النفس .

كان شعراء العرب في الدولتين الأموية والعباسية يمدحون ويسجلون الحوادث وأثر الممدوح فيها ، فمنهم من كان يمدح عن إيمان وصدق وعن حب ووفاء . فإذا تابعت رجلاً منهم كأبي تمام وكانت منزلته لدى الرؤساء والشيوخ على أعظم ما تكون الصلة والعطف ، إذا تابعته في قوله يمدح الوزير محمد بن عبد الملك الزيات — وكان له صديقاً — في قصيدته التي أولها .

لهان علينا أن نقول وتفعلا ونذكر بعض الفضل منك فتفضلا

فإنك تجد فيها مثلاً للمدح الناطق بالولاء الظاهر ، يقول للوزير ما يراه دون تحرز ويتقدم اليه يستأذنه في الرحيل عنه وعن بغداد .

سأقطع أعناق المطايا برحلة الى الوطن العربي محراً وموصلا
الى الرحم الدنيا التي قد أخفتها عقوقي ، عسى أسبابها أن تبللا
قبيل وأهل لم ألاق مشوقهم لوشك النوى إلا فراقاً كلا ولا
كأنهم كانوا خلفة وقتي معارف لي أو منزلي كان منزلا
ولو شئت لما التاث بي عنهم ولم يك إجمالا لكان تجملا
فلم أجد الأخلاق إلا تخلقاً ولم أجد الأفضال إلا تفضلا
وأصرف وجهي عن بلاد غدا بها لساني معقولاً ، وقلبي مقفلا

ومنها :

لئن همي أوجدني في تقلبي مآلاً ، لقد أفقدتني منك موئلا
فإن رمت أمراً مدبر الوجه أنني لأترك حظاً في فنائك مقبلا
وإن كنت أختطو ساحة المحل أنني لأترك روضاً من جداك وجدولا

فهذا الشاعر يخاطب الوزير بما في نفسه ولا يحسبه أنه يمدحه وانما يخاطبه وهو يعلم أنه يخاطب روحاً مثله تحبه وتؤثره وتقدر عواطفه ومكانته .

وقد روي أن أبا تمام قدم يمدح الحسن بن رجاء ، فأنشده قصيدته التي أولها

كفي وغاك فانني لك قالي ليست هوادي عزمتي بتوالي

فلما وصل الى قوله في الممدوح

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي
وتنظري خبب الركاب ينصها محيي القريض الى مميت المال

قام الحسن بن رجاء وقال لأبي تمام ، والله لا أتممتها إلا وأنا قائم ، فقام أبو تمام لقيامه وقال :

لما بلغنا ساحة الحسن انقضى عنا تملك دولة الإمحال
أغلى عذارى الشعر أن مهورها عند الكرام اذا رخصن غوالي

الى آخر الأبيات

فتعانقا وجلسا . فقال له الحسن ، ما أحسن ما جليت هذه العروس ، فقال أبو تمام ، والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك أوفى مهورها . وكافأه الحسن على ما اشتهر به من البخل بأحسن عطاء .

ونعتذر عن الاستطراد في الحديث فانه ذو سعة ، ولنعد الى حافظ وشوقي .

كان حافظ وشوقي يتخذان من المديح وسيلة للزلفى الى قوم لم يكن منهم لفئة بله الشعر تقدير ، وكانوا يفهمون الشعر على أنه ضرب من الصناعة يصاغ لابتزاز المال . ولم يكن للشاعرين في الوقت نفسه قدر من الاعتزاز بالشخصية التي تكسب الشاعر هيبته وعظته ، كما لم يكن لهما من الثقافة الواسعة ما يؤهلهما الى ادراك الأشياء على حقائقها وتفهم مناحي الفلسفة والعبقرية . وإذا كانت طبيعة حافظ حفزته في أول عهده الى أن يكشف من جو الحياة القاتمة في زمنه الرازح ببطش الاستعمار والطغيان ، وما اشتد حوله من ظلم وخطوب ، فان طبيعة شوقي لم تدرك الا مناعم القصور ورقة الترف لا تعارجها الآلام الممض للذي يستفز المشاعر الانسانية ، فظل حتى أواخر أيامه مولعاً في نظم قصائده بالأصباغ والألوان ، لا يعلق الاّ بالتشبيه والاستعارة ومعارضته قصائد القدماء ليقال إنه يبزهم . فاذا جرح الزعيم سعد زغلول حين اعتدي عليه ، كان مثله كمثل عثمان حين قتل ، وإن آثار الدماء التي سالت على قميص سعد تشابه الدماء التي سالت على صفحات القرآن الذي كان عثمان يتلوه حين قتل ، ولو مات سعد في اصابته لنيب (صرو الامور) و (أخلى من المنابر سحبانها !)

واذا وصف النخيل لا يذكر إلاّ فصوص العقيق منضدة بشذور الذهب وأن النخيل (ملك الرياض أمير الحقول ، عروس العزب !! ..) وأن ثماره طعام الفقير ، وحلوى الغني وزاد المسافر والمغترب !! ..) .

فهل هذا شعر تنفثه الروح وتمطره الأخيلة !! ..

إن الذين يأخذون الشعر على ألفاظه ليقولون لك هذا أبدع الشعر وأحلاه .. وأي رقة

أعذب من هذه الكلمات الرقيقة المرصوفة كأنها اللآلىء المكنونة !... والتي قلّ أن يجود بها الزمان من شاعر مثل شوقي !!...

وكما كان الشاعران بعيدين عن الجلال والعظمة الانسانية ، لم يكن لهما من الثقافة العالية ما يدفعهما الى التغلغل في صميم الأشياء . وفي مناسبة ولحدة وهي موت تولستوي الفيلسوف الروسي الكبير عام ١٩١٠ ، رثاه شوقي بقصيدة وأعقبه حافظ بأخرى من بحر وقافية شوقي . فما الذي قالاه ؟ .. قال شوقي : —

(تولستوي) تجري آية العلم دمعها   عليك ، ويبكي بائسٌ وفقير
وشعبٌ ضعيف الركن زال نصيره   وما كل يوم للضعيف نصير
ويندب فلاحون أنت منارهم   وأنت سراج غيّبوه منير
يعانون في الأكواخ ظلماً وظلمة   ولا يملكون البث وهو يسير
تطوف كعيسى بالحنان وبالرضا   عليهم ، وتغشى دورهم وتزور

* * *

ويبكيك ألف فوق (ليلى) ندامة   غداة مشى بالعامريّ سرير

* * *

إذا أنت جاورت المعرّي في الثرى   وجاور (رضوى) في التراب ثبير
وأقبل جمع الخالدين عليكما   وغالى بمقدار النظير نظير
فقل يا حكيم الدهر ، حدّث عن البلى   فأنت عليمٌ بالأمور خبير
أحطت من الموتى قديماً وحادثاً   بما لم يحصل منكرٌ ونكير

وأعقب حافظ يجاري شوقي في قصيدته هذه التي اقتضبنا منها الأبيات السالفة

رثاك أمير الشعر في الشرق وانبرى   لمدحك من كتّاب مصر كبير
ولست أبالي حين أرثيك بعده   إذا قيل عني قد رثاه صغير
فقد كنت عوناً للضعيف ، وأنني   ضعيفٌ ومالي في الحياة نصير

* * *

إذا زرت رهن المحبسين بحفرة   بها الزهد ثاو والذكاء ستير

وأبصرت أنس الزهد في وحشة البلى وشاهدت وجه الشيخ وهو منير
وأيقنت أن الدين لله وحده وأن قبور الزاهدين قصور
فقف ثم سلّم واحتشم إن شيخنا مهيبٌ على رغم الفناء وقور

فالقارىء يرى من الأبيات التي ذكرناها من القصيدتين أن كلا الشاعرين نظر الى تولستوي نظرة سطحية فقارناه بأبي العلاء على انه مثاله في زهده وتنسكه وعزوفه عن الدنيا مع أن كلاً منهما يختلف عن الآخر في الاتجاه والنظرة الى الحياة، فتولستوي كان من سلالة أصحاب الاقطاع في روسيا وعاش في أوساطهم وحارب في جيش القيصر. وظهرت الاشتراكية فدان بها وانقلبت الآراء في ذهنه فكرّس نفسه لخدمة شعبه والدعوة الى رفع مستواه حتى انه وزّع ما يتملكه من أراض على عمال ضيعته ولبس لباسهم واشتغل معهم. أما أبو العلاء فقد عاش في ضنك لا يجد من الحياة الا ما ينفره منها ويقصيه عن ملاذها كان مقبوض النفس لا يرى معنى للوجود أو صورة للبقاء.

ولقد استهلّ حافظ قصيدته بالتسميع « بأمير الشعر في الشرق » ، والذي نعلمه أنه في ذلك الوقت كان يتردّد على شوقي ويلازمه بحكم منزلته لدى الخديوي ليسعى له في الوظيفة التي يرومها لمعاشه.

وشوقي هو شوقي في أغلب قصائده لا بدّ له من الاستعارة، فرحمة عيسى وليلى العامرية والمعرّي وسحبان ووائل، ورضوى وثبير، يزج بها في كل مجال دون اعتبار للموقف أو وزن للموضوع، وكأنها أقانيم يحوم حولها ولا يتخطاها. ولو اتسع المقام لذكرنا الكثير من المآخذ في السياق، ولكن الحديث عن حافظ وشوقي يطول.

أنهما في اعتقادي شاعران لزمانهما وجيلهما، ولكلٍّ منهما منحاه. وأن صديقنا الأستاذ الصيرفي ليستحق الشكر والثناء على ما بذل من جهد في تصويرهما على ضوء الحقيقة وعلى مسرح الحوادث التي تتابعت في أيامهما، فجاءت رسالته لا كما قال في نطاق ضيق، بل منافذ مفتوحة لحياة الشاعرين ودراسة دقيقة لم يشبها حشو ممل أو تكرار ممجوج.

القاهرة عمر الصمادي رسمي